أحلام الفجر

بقلم ابراهيم المصرى

كنت اذ ذاك فى نحو الرابعة عشرة من عمرى ، وكنت مشغوفا بمطالعة قصص«اللص الشريف» و «روكامبول» و « ابن روكامبول » كما كنت مندفعا بغريزتى وتحت تاثير هذه المطالعات الى محاولة تاليف القصص ...

وكان والدى يكره اتجاهى هذا ، ويشتد فى صرفى عنه ، ويضربنى ضربا مبرحا كلما باغتنى وانا اقرا الروايات او اكتبها ، ولا يفتأ يردد على مسامعى ان كتابة القصص لا يمكن ان تطعم صاحبها ، وان الادب مهنة الصعاليك وان حظ الاديب هو ان يعيش متسولا ويموت مهتوك الكرامة يائسا مغمورا .

وكنت انا لفرط ولعى بهوايتى ، وتحليقى الدائم فى عالم الخيال ، واعتدادى بنفسى وشخصيتى وعظمة اتجاهى ، انظر الى والدى من عليائى ، واستخف به ، واتلقى لطماته فى صمت واحتمال وانا ارثى لحاله ، واغافله ، وامعن فى الاستسلام لنزعتى ...

بيد ان عينه الساهرة كانت تراقبنى ، وتحوم حولى ، وتتحين الفرص كى تضبطنى متلبسا بالجريمة وتبطش بى . فكنت افر من بيتنا ، واهرع الى حانوت المعلم «مرسى» الشربتلى الكائن بجوار حارتنا ، واقبع فى ركن من الحانوت ، واظل اقرا واكتب ، والسمكرية

والحدادون والنجارون والباعة السريحة يحيطون بى ، ويترشفون اقداح الشربات المثلجة وهم يتفامزون على، ويرشقوننى بنظرات دهشة مستغربة فيها مزيج من السخرية وشىء غير قليل من الاعجاب .

وحدث ذات مساء ، وأنا فى الحانوت مستغرق فى كتابة رواية غرامية ومنهمك فى حبك وقائعها التى بهرتنى، ان دخل والدى الحانوت وباغتنى ، ثم انقض على ، واختطف الرواية منى ، ومزقها ، وطفق يضربنى ويركلنى امام النجارين والحدادين والسمكرية ، وهو يجذبنى من ذراعى ويجرنى الى البيت جرا ، ويسبنى هادرا ويلعننى .

وكبر على ان اضرب واهان امام العمال والباعة واطفال الحى فثار ثائرى ، واستجمعت قواى ، وتملصت من والدى ، ومضيت اركض وفى نيتى الا اعود الى بيتنا ، وان ألوذ بمنزل خالى الذى كنت احبه وكان يحبنى . ولكن والدى لحق على الفور بى ، واطبق على ، ثم تمكن منى ، وساقنى الى البيت سوقا وهو يبتسم ابتسامة باردة متوعدة ارتعدت لها فرائصى .

ولم نكد ندخل البيت حتى اسرع والدى واوصد بابه بالمفتاح ، ثم دس المفتاح فى جيب سترته ثم اندفع الى الشرفة وفك حبلا من حبال الغسيل . فأدركت أنا مراده وجمد الدم فى عروقى . أما والدتى فتعلقت به مسترحمة مولولة وهى تطوقنى بذراعها لتحمينى . ولكنه زجرها فى عنف واقصاها ثم نضا عنه سترته ، وأمرنى بأن اجلس على الأرض وان اخلع حذائى وجوربى . فامتثلت وانا ارتجف . فهجم بغتة على ، وربط بالحبل قدمى العاريتين ثم عقد الحبل فى أحد أعمدة السرير ثم انحنى وفك الحزام الجلدى الاسود الذى كان يتمنطق به ، ثم رفع ذراعه الباطشة ، وانهال بالحزام ضربا على قدمى . فتلويت أنا من فرط الألم وصرخت :

ـ فى عرضك يابا ... فى طولك ... حرمت ... حرمت خلاص ...

ولكنه ظل يضرب فى لذة وشماتة وعناد . فتعالت صيحات أمى ، واحسست انا كأن لفحات من نار تحرق قدمى وتسلخ جلدى . فارتفع ايضا صراخى ، واختلط بتوسلى ونحيبى ، فازداد والدى حنقا على وامعانا فى ضربى والتنكيل بى .

وعندئذ سمعنا دقا عنيفا متعاقبا على الباب الخارجى ، وصوتا متهافتا يقول :

ـ افتحو ... ماتفتحو امال ...

فتنفست أمى الصعداء ، واستدارت واثبة ، وغافلت ابى وهو يضربنى ، واستلت المفتاح من جيب سترته ،

وأسرعت وفتحت الباب . فدخلت جارتنا الشابة الحسناء « الست بهية» زوجة « الحاج طلبة » صاحب الطابونة الكائنة فى اقصى حينا . دخلت ملهوفة ومبهوتة ومذعورة . فتنبهت أنا لوجودها ،واشتد ذلى وحنقى وعذابى. خجلت كل الخجل من وضعى الشائن ومنظرى المزرى . فنصبت بدنى جاهدا ،وطفقت اغطى بأطراف جلابيتى

بطنى المكشـــوفة وعورتى وســـاقى العـــاريتين . اما الست بهية فلم تكد تبصر والدى يلوح ايضـــا بحـــزامه الجلدى ، وترانى منطرحا على الأرض اتلوى وابكى ، وقدماى مرفوعتـــان ومفلولتان الى السرير ، حتى تراجعت مستنكرة ومستهولة ، وضربت صدرها بقبضتها وصاحت :

ـ يا نصرى .. الواد حيسورق .. حرام عليكو يا اخواتى ... بس يا عم سليمان .. بس .. كفاية كده ... علشان خاطرى ... امسح العيبة دى فى وشى انا يا عم سليمان ...

وانحنت على والدى ، وربتت بيدها الرخصة على كتفه ، وقالت فى صوت ناعم متوسل عذب :

ـ ماليش خاطر عنـــدك يا عـــم سليمان ؟ ...

فأرخى والدى ذراعه ، وتطلع الى المراة ، وقال وهو يفتل شاربه :

ـ علشانك انت بس ... لكن والله العظيم لو عادها مرة تانية، حاموته !.. اسيح دمه !.. قال عايز يطلع ادباتى وجـرنالجى قال ! .. عايز يعـــرنى ويبهدلنى ، ويعيش ويموت شحات !..

وفك الحبل وصرخ :

ـ فز ..قوم .. قوم خش اودتك، وذاكر دروسك حالا ... يالا ...

فتحـاملت على نفسى وانا الهث ، واشحت بوجهى كى لا يقع بصر الست بهية على . ولكنها دنت منى، وطوقتنى بذراعها ، وقالت وهى تمسح بيـدها على شعرى :

ـ ابقى اسمع كلام ابوك ياحبيبى.. دا قلبه عليك ...

فجفت دموعى ونظـــرت اليهـا . نظرت الى الست بهية من طرف خفى وراعنى منظـرها . كانت معصـــوبة الراس بمنديل احمر ، تتهدل اطرافه المرصعة بحبات الترتر وتتراقص على الدائرة المكشوفة من جبينها الناصـع البياض . وكانت بيضاء البشرة بلون الحليب ، واســـعة العينين ، مقرونة الحاجبين ، ناهدة الصدر ، ذات نظرة فاترة فى طيبة وحنان ، وحركة رخوة فى عزة ودلال ، لا تفتأ تبتسم ابتسامة لينة رقيقة وهى ترفع ذراعها البضة ، وترد عن عينيها السوداوين الواسعتين حبات الترتر بأصـــابعها المخضـــبة بالحناء ...

لم ارها ابدا فى مثل هذا الحســـن الساحر الحنون . فمضيت بالرغم منى احدق فيها . فاستغربت هى نظرتى الطـــويلة وغضت من بصرها . فلبثت اتاملها واجما ولم اتحرك . فعيل صبر والدى وصاح يستعجلنى :

ـ مستنى ايه ؟ ... خش اودتك قوام وذاكر ...

فاطرقت وحولت وجهى ، ومشيت متثاقلا فى اتجاه غرفتى ، بينما كانت امى تشـــكر الست بهية ، وتعانقها ، وتغمرها بالقبلات ، وتلتمس اليها ان تمكث لحظة اخرى ريثما تعد لها فنجانا من القهـــوة او قـــدحا من شراب التمرهندى ...

***

ولست ادرى ما الذى اصابنى بعد ذلك اليوم . نسيت اللص الشريف ،

وروكامبول ، وابن روكامبول ، وتأليف الروايات ، ولم اعد افكر الا فى الست بهية التى عطفت على وانقذتنى ...

ولم اكن قد اهتممت بها من قبل ، او امعنت النظر فيها ، او تنبهت الى جمالها الفتان . فلما خفت لنجدتى من دون الجيران جميعا ، تالق وجودها فجاة امامى ، وخيل الى انى اراها لاول مرة ، وانها سكنت عمارتنا بالامس فقط ، وانها امراة رائعة وعظيمة لم اشهد لها بين كل من رايت من النساء نظيرا ! ...

وانجذبت اليها انجذابا طارئا مستبدا انهكنى واضنانى . فبت احلم بها فى نومى ، وارى طيفها فى يقظتى ، واسمع صوتها العذب الحنون يخالس حفيف كتبى واوراقى . ثم اتمثلها بغتة وهى تمسح بيدها البضة على شعرى ، فاغمض عينى مترنحا من فرط نشوتى ، واحس كان دمى كله يغلى فى عروقى ويوشك ان يتصاعد الى راسى ويصرعنى ...

ولم استطع ان اعيش دون ان اراها . وكانت تسكن فى الطابق الاول من عمارتنا ونحن فى الطابق الثانى . فكنت اجمع رفاقى واسوقهم الى اللعب تحت نافذتها ، عسى ان يثيرها ضجيجهم فتطل من النافذة ولو لحظة ...

وكنت اكمن لها فى بير السلم ساعات ، وانتظر فى الظلمة وانا اتحرق ، وملء نفسى الامل فى ان تخرج لزيارة ، او تستقبل ضيفا ، او تنادى بائعا ، فاجتلى طلعتها الساحرة خلسة ثم امضى ...

وكنت اتزين لامى زيارتها ، واوعز الى ابى ان يوثق عرى الصداقة بينه وبين الحاج طلبة زوجها ، واغلو واسرف فى مجاملة هذا الزوج الكهل الطيب الصموت البليد ، الى حد انى كنت استوقفه فى الشارع وهو يحمل بطيخة او شمامة وابالغ فى تحيته واحترامه ، واستاذنه فى حمل الفاكهة الثقيلة عنه ، والذهاب بها مسرعا الى بيته ، كى ارى امراته الجميلة فترة واسعد ...

ولما كنت ارى الست بهية فى خلوة سانحة عابرة ، كان يخفق قلبى ، وينعقد لسانى ، ويتصبب العرق من جبينى ، واقف امامها جامدا ذاهلا مخبلا ، كتلميذ خانته ذاكرته ساعة الامتحان ، ونسى الدرس الذى كان قد استظهره وكان يعتقد انه قد وعى كل عبارة فيه .

ولبثت هكذا اياما طويلة احوم حولها واتعقبها ، واشعر بعجزى المطلق عن الاهتداء الى طريقة مامونة تمكننى من التقرب اليها والاتصال الوثيق بها .

وساورتنى عوامل الحيرة والقلق زمنا . فتعذبت وكدت اياس . ولكنى اهتديت فجاة وطربت ... فكرت فى ابنها الوحيد ، فى ابنها البالغ من العمر سبع سنوات ، فى طفلها المدلل الكسول الغبى « شعبان » ، الذى يتلقى العلم فى مدرستى نفسها ، والذى اشتهر بضعفه الشائن فى المطالعة والاملاء والحساب . فاليت على نفسى ان اتودد اليه ، وان اصادقه ، وان اعرب لامه عن استعدادى لاعطائه بعض الدروس الخاصة فى مختلف المواد المستعصية عليه .

وتشجعت بالفعل وطرقت باب

الحاج طلبة . ولما كانت الست بهية تعبد ابنها الوحيد وتريد أن ترفع به راسها فى الحارة كلها ، فقد ابتهجت بما عرضت عليها أيما ابتهاج ، وانبأت به زوجها الذى اقرها عليه . ثم زارتنا فى اليوم نفسه ، وشكرتنى امام امى المزهوة وابى الفخور داعية لى بطول العمر ، ثم بعثت بابنها فى مساء اليوم التالى ليتلقى درسه الأول فى منزلى ..

وبهت انا واغتظت لاخفاق تدبيرى . ولكن الفيظ اوحى الى فكرة جديدة . فلم اتردد واحتلت جهدى وتخابثت ، وسلطت اخوتى على شعبان . فتحرش به ثلاثتهم ، وعيروه بكسله ، وطفق اصفرهم يختطف اقلامه وكتبه . فتضارب الأربعة . فضاقت امى ذرعا بنا . فطيبت انا خاطرها واسرعت واصطحبت الصبى الى داره ، وقلت لوالده ان ابنه شديد الضعف فى مادة الحساب ، وان اخوتى يعاكسونه ، وان من الخير له أن يتلقى الدروس فى بيته هو وفى ساعات فراغى ... فقطب الحاج طلبة حاجبيه لحظة . ولكنه عندما تأمل قامتى الضئيلة وبنطلونى القصير ، هز كتفيه مطمئنا وسلم . اما الست بهية فقد اعتبرت تصرفى اخلاصا لابنها وتفضلا منى . فرحبت بى وابت الا ان تكرمنى . فأطلت من النافذة ، ونادت امى ، واستأذنتها فى أن تستبقينى تلك الليلة عندهم كى اتناول معهم طعام العشاء ...

***

ودخلت بيت الست بهية ظافرا ، واصبحت أراها فى كل مساء تقريبا .. ولكى اكسب عطفها ورضاها ، تفانيت فى الاهتمام بابنها ، والاخلاص فى تعليمه ، والغيرة على مستقبله . فتقدم الصبى تقدما ملحوظا . فتاهت الست بهية خيلاء وعجبا ، وتشبثت بى ، ورفعت كل كلفة بيننا .

ولم اكد اشعر باقبالها على حتى تجاسرت وانتهزت فرص ايام العطلة ، وبدات ازورها فى الصباح ايضا وفى غير مواعيد الدرس واثناء غيبة زوجها . فكانت تستقبلنى هاشة متهللة ، وتضاحكنى، وتعابثنى ، وتقودنى بيدها الى المطبخ . فأجلس على الأرض بجوار شعبان ، واراها تغدو وتروح امامى ، وخفق قبقابها الصدفى الساحر يرن موقعا على دقات قلبى.ثم اراها تجذب الطبلية فجأة وتجلس متربعة تجاهى وتأخذ فى اعداد الطعام . فأشاركها فى تخريط الملوخية ، او تقميع البامية ، او تقشير الباذنجان ، او تصفية الطماطم ، وانا ارمق بعين مختلجة حبات الترتر المتراقصة فوق حاجبيها المقرونين ، ووميضات الاساور المصطفقة فى معصميها المشوقين ، وهبات انفاسها المتصاعدة من صدرها الملىء ، ورعشة عينيها السوداوين الواسعتين كلما انحسر ثوبها عن نحرها ، فردته بيدها الرخصة المخضبة بالحناء ...

وكنت سعيدا كل السعادة ، يضطرم كيانى بغتة فاندفع نحوها ملهوفا واذا اختلج . فتنظر هى الى نظرة باسمة هادئة متفحصة .. فينخلع بدنى واتراجع ، واكتفى بأن اسبح فى جوها الطلق ، واتنشق عبيرها الحاد ، واملأ سمعى وبصرى من خفق قبقابها ، وقصف ضحكتها ، وخشخشة اساورها ، ثم أعود الى البيت مطرقا وطيفها

المنكبين ، مفتول الشارب ، فى عينيه الرواغتين الثاقبتين بريق مرح وصحة، يلمع فترة ثم يخبو ، فتقسو نظرته بعد لين ، فيحاول أن يلطفها بابتسامة معسولة وحديث ناعم رقيق ...

وكان يتكلم وهو يتلاعب بشراريب كوفيته ، وينكت ويتظرف ، ويسترق النظر الى الست بهية وهى تتأمله خلسة وتتفرس فيه . أما انا فكنت اشعر شعورا قويا أن هذا الرجل الذى حج بيت الله الحرام كاذب ومنافق ولئيم وشرير . فلم أطق رؤية شاربه المتوقح المتحدى . فنهضت مستأذنا . فلم تشعينى الست بهية الى الباب كعادتها وظلت تنصت الى حديث الحاج عبد السميع . فلحق بى زوجها ، وربت على كتفى ، واراد ان يقدم لى عنقود عنب واصبعين من الموز . ولكنى رفضت شامخا متأبيا ، وتملصت من الرجل وانصرفت ...

واختفى الحاج عبد السميع ، ونسيته انا تماما . غير أنه سرعان ما ظهر بعد أيام ، وتسلل فجأة الى بيت قريبه وصديقه واخيه .

وكان الحاج طلبة برغم بلادته حريصا على بيته ، غيورا أشد الغيرة على عرضه ، محرما على امراته أن تستقبل اى رجل فى غيبته . بيد أن الحاج عبد السميع كان يتذرع بصلة القرابة ورابطة الأخوة ، ويقتحم بيت صديقه سواء أكان موجودا فى البيت أم غائبا .

وكبر على الحاج طلبة أن ينبهه فيجعله موضع ريبة . فتجاوز عن تصرفه ، واكتفى بأن قال لزوجته أمامى انه اذا اتفق وزارها الحاج عبد السميع فى غيبته ، فيجب أن تشعره هى بسوء تصرفه وخروج مركزها ، ويجب ان يظل الصبى شعبان بينهما ، أو يظل باب البيت مفتوحا حتى ينصرف الرجل الغريب .

وهذا ما حدث بالفعل أول الأمر . ولكن شيئا آخر حدث بعد ذلك، وكنت الحظه واتمزق ... كان الحاج عبد السميع يكثر من زيارة الست بهية فى غيبة صديقه . فكانت هى فى تلك الفترات توصد باب البيت ، وتحرص كل الحرص على أن يكون الصبى شعبان بينهما . غير انها فى الوقت نفسه كانت تقصينى انا ، وتعبس فى وجهى اذا دخلت عليهم ، وتحاذر أن تجاملنى ، بل تنفر صراحة منى ، وتمر بى جامدة باردة مترفعة كأنها لا تراني ولا تعرفنى ... تغيرت تماما ... انقلب عطفها الى جفوة ، وحنانها الى قسوة ، ولينها الى غلظة ، واقبالها الى شبه نبذ واحتقار ...

حرمت على زيارتها الا فى مواقيت الدرس ، بينما أصبحت تستقبل الحاج عبد السميع فى أى وقت شاء . أجل كانت تشفع له عند الحاج طلبة أمامى، وتثنى على أخلاقه أطيب ثناء ، وتقول انها خجلة منه لفرط أدبه ، وانه لا يدخل البيت الا وهو يحمل هدية لشعبان ، وان ليس فى مقدورها أن تتنكر له وتصده ما دام يحترمها وينظر اليها هى أيضا باعتبارها أختا له ...

وكان الحاج طلبة يستمع اليها ويهز رأسه حائرا مدمدما ويصمت · أما أنا فكنت أتعذب · كنت أتفطر · كنت أود لو استطعت أن أضرب هذا الزوج البليد لأوقظه · وكنت فى الوقت ذاته أشعر انى ذليل وحقير ، وانى طفل وغرير ، وان الست بهية قد لعبت بى، وتسلت فترة على حسابى ثم لفظتنى وتعلقت برجل ··· رجل قوى ، وغنى وجميل ··· رجل لا قدرة لى عليه ، رجل حطمنى وسجل على الهزيمة والخزى والعار ···

وحز فى صدرى ضعفى وعجزى · فكرهت الست بهية ، واعتقدت انها سقطت · ثم عز على حلمى وايمانى فاعتقدت انها لن تسقط · ثم راجعت فكرى وأيقنت انها بالفعل قد سقطت· فتمزق قلبى ، واسودت الدنيا فى عينى ، وعدت فارتميت عامدا فى مطالعة الروايات وتاليفها · فباغتنى والدى مستهولا جرأتى واصرارى · فرحبت بصرخاته وضرباته وفنون تنكيله كى أتحمل عذاب الاستبداد مضافا الى عذاب الحب الخائب ، فأعيش فى ألم متصل مروع ، وأشعر على الأقل انى أصبحت شهيدا وضحية ···

وحاولت أن أكف عن تدريس الصبى شعبان ذودا عن كبريائى وخشية ان أفاجأ أثناء الدرس بزيارة الحاج عبد السميع · فتمارضت أياما واعتذرت فلم ترسل الست بهية فى طلبى · فبلغ الحنق منى مبلغه وكاد اليأس أن يقتلنى ·

وفجأة ، وفى عصر أحد الايام ، سمعت صوتها ، صوتها الأول ، صوتها القديم ، صوتها العذب الحنون ، ينبعث من نافذة بيتها ، ويستفسر عن أمى وينادينى ··· فوثب قلبى فى صدرى واندفعت · اندفعت خطوة ثم تراجعت· أبيت أن أذهب · عضضت على شفتى بأسنانى ، وغرست أظافرى فى راحتى، وتصلبت جاهدا وأبيت أن أذهب · ولكن الصوت الحنون عاد يرن فى مسمعى · فانهار بغتة عزمى ، وطاطأت رأسى صاغرا وذهبت ···

ولم أكد أدخل بيت الست بهية حتى أبصرت الحاج عبد السميع ، فذهلت ··· كان هناك ··· كان بجوارها ··· كان جالسا على مقعد بالقرب منها ، يلاطف ابنها ويقصيه ثم ثم يميل بجمعه اليها ، ويحادثها فى انفعال ، ويهمس فى أذنها همسا متهافتا مغريا وهو يتلاعب بأطراف كوفيته الحريرية الصغيرة الخضراء ··· اذن لماذا نادتنى ؟! ··· لماذا أصرت على مجيئى ؟! ··· لماذا أرادت أن أعكر عليها صفوها وهى فى شبه خلوة مأمونة مع صديقها ؟! ··· ان الحاج عبد السميع قد انتفض لمقدمى . وهاهو ذا يرمقنى بنظرة شزراء وكأنه يريد ان ينقض على ليخنقنى ·

وحدقت الى الست بهية وأنا أحييها فنهضت لفورها واثبة ، وجذبتنى من ذراعى ، وتعلقت بى ، ثم جاءت بمقعد وضعته بينها وبين الحاج عبد السميع ثم التمست الى أن أجلس على المقعد ، ثم ابتعدت هى بمقعدها قليلا وبدنها يرتجف ··· كانت شاحبة · كانت مضطربة · كانت قلقة · فتطلعت

اليها متأملا وتنبهت .. أشرقت بصيرتى بغتة وتأكدت ... تأكدت ان حبيبتى لم تسقط ولن تسقط ، وان الرجل يطاردها وهى تقاوم ، وانها وان كانت قد انجذبت اليه الا انها تخاف منه ، وتخاف من نفسها ، وتخاف على بيتها ، ولا تجد فى شخص ابنها الضئيل قوة تعصمها ، وتريد منى أنا ... أنا الذى لم أعد طفلا ، أن أخف لنجدتها ، وأن أكون السد الحائل والجدار المنيع الذى يفصل بين الحاج عبد السميع وبينها ...

وارتدت الى روحى ، وأهاجنى الفرح بقوتى . فتشبثت بمكانى ، وتحولت صوب الست بهية أذود عنها بصدرى. وطفقت أرمق الحاج عبد السميع بالنظر الشزر أنا أيضا ، واتعالى عليه، واستخف به ، وهو يحدجنى بعين مستشيطة غير مصدقة ، ويمد يديه المتصلبتين فى اتجاهى كأنه يريد أن يقتلعنى من مقعدى ويقذف بى الى الشارع ...

ولما أحس ألا حيلة له فى التخلص منى ، اصطنع البشاشة والضحك ، ثم نهض متثاقلا ، واستأذن وهو يصافح الست بهية فى فتور ، ويرجوها أن تسلم له على الحاج طلبة ، ويقول لها انه سيزورها قريبا كى يحمل اليها الهدية الكبيرة التى وعد بها ابنها شعبان وهى « بدلة تشريفة » موشاة بالقصب ، يتدلى من وسطها جراب مذهب فيه سيف صغير من خشب ...

وجاملته الست بهية ، وشيعته حتى الباب ، ولكن لا بدلة التشريفة ولا غيرها من الهدايا الفاخرة التى كان يجلبها الرجل البغيض ، أفلحت فى التغلب على حبيبتى ، ودفعها الى اقصائى ... عادت الى وعدت اليها ... عادت الى أكرم نفسا وأبلغ ودا وأوفر سماحة مما كانت عليه . فنفذت من جديد الى حياتها ، ودخلت مطبخها، وخرطت الملوخية معها ، وأكلت وشربت من يدها ، وغمرنى العبير المتضوع من جوها فسكرت وأنا لا أعرف الخمر ، ولم تعد تسعنى الدنيا .

وكان كلما أقبل الحاج عبد السميع فى غيبة زوجها ، وكنت أنا فى منزلى، تسرع هى وتنادينى . فأنطلق اليها كالسهم ، وامكث بين الرجل وبينها ، وأظل أكيده وأرهقه بوجودى حتى يضيق ذرعا بى فينصرف . فأعجز عندئذ عن ضبط قلبى ، فتنفجر فرحتى بالرغم منى .. فأحمل شعبان بين ذراعى وأطوف به غرف البيت واثبا راقصا وأنا لا أعى ...

وأحسست اذ ذاك فقط بأنى انسان أحسست اذ ذاك فقط بأنى قد أصبحت فى الحق رجلا . فكنت أهتف فى نفسى ان حبيبتى تثق فى ، وتحتاج الى ، وتعتمد على عونى ، فيلتهب كبرى ، ويتجدد أملى ، واتطلع فى يقين الى المستقبل الزاهر المنشود الذى تتشجع فيه الست بهية ، فتطرد من بيتها الرجل الدخيل ، وتعود بجمعها الى ...

وكان الحاج طلبة قد بدأ يفيق من غفلته ويتنبه ... كان قد بدأ يستريب بصديقه ويصد عنه ويتحين الفرص لالزامه حده والتخلص منه . فزادتنى

هذه اليقظة فرحا ، وانشرح صدرى ، وآمنت بالنصر الكامل المكفول ٠

وفجأة ، وفى مســـــاء يوم من أيام الشتاء ، مساء مكفهر عاصف مطير ، وقع شىء خارق ، شىء لم أتوقعه أبدا ، شىء زعزع كيانى باشـــد ممـــا كان يزعزعه الرعد الذى يدوى فى الفضـاء حولى ٠

كان باب شرفتنا موصـدا ، وكنت أتطلع من خـــلال زجاجه الى الغيـــوم المتكاثفة المتلاطمة تأكل بعضها كأنهـا الغيلان ، واذا بى ألمح الحاج عبد السميع يدخل الحارة ويتجه نحو عمارتنا ٠٠٠ فارتعشت وانطلقت توا الى الخارج وأنا أصيح بأمى انى ذاهب لتدريس شعبان ٠٠٠ ولكن خادمتنا مبروكة التفتت الى عندئذ وقالت ان شعبان غير موجود فى بيته ، وانها التقت به ظهرا فى السوق٠ فقال لها ان أمه قد بعثت به الى منزل صديقتها الست حفيظة ، وانه سيتغدى هنـــاك مع أولادها ، ثم يصـــحبه خادمها الى الطابونة كى يعود فى رفقة والده ليلا بعد العمل ٠٠٠ فشخصت أنا الى الخادمة واضطربت ٠ اضـطربت لحظة ٠ ولكنى مع ذلك لم أحفل كنت واثقا ٠ واثقـــا من ان الست بهية قد فوجئت بزيارة الحاج عبد الســميع ، وان هذه الزيارة لا بد ان تحرجهـــا وتخيفها ، وانها لن تقبل أبدا بأن تظل مع ذلك الرجل فى البيت بمفردها ، وانها وهى تعرف انى فى منزل ، لابد أن تســـتنجد بى ، وتطلب حمايتى ، وتتذرع بأيـــة حجة لتنـــادينى ٠٠٠ انتظرت طويلا ٠٠٠ ولكنى لم أســـمع ٠٠٠ لم أسمع شيئا ٠٠ لا صوتها ، ولا صرير نافذتها ، ولا أية حركة صادرة عن بيتها ٠ فأجلت البصر حولى ذاهـلا وكف قلبى عن الخفقـــان ٠٠٠ لماذا ، لماذا لم تنادنى هذه المرة ، وما معنى هذا الصمت الشامل الخانق المكتوم ؟!

واضطرم خيالى ، واحتدم فكرى ، وســـاورتنى الريب والشـــكوك ، بل تســـاقطت على كوابل المطر الذى كان ينهمر أمـــامى ٠ فقلت فى نفسى وأنا أختلج : أممكن هذا ؟ ٠٠٠ أفى الاحتمال تصور شىء كهذا ؟ ٠٠٠ أيمكن أن تكون على اتفاق سابق مع الحاج عبد السميع، وانها قد بعثت بابنها الى صديقتهـــا عامدة ، وأبت أن تنادينى ، ليخلو لها الجو مع رجل هو خليلها ؟! ٠٠٠

وفار دمى ، وأحسست كأن خواطرى تستحيل الى ســـياط من نار ٠ فلم اتمهل ، ومضيت لتوى ، وهبطت الدرج وطرقت باب الست بهية ٠٠٠

وفتح الباب بعـــد لحظات ، واطلت المرأة من فرجته ٠٠ وما كادت تلمحنى حتى تنفست ٠ وما كدت المحهـــا أنا حتى ذهلت ٠ لم أرهـــا معصـــوبة الرأس بمنديلها ، ولم أر حبات الترتر تتراقص فوق حاجبيها ٠ رأيتها عارية الرأس ، مشعثة الشعر ، زائغة البصر، مقطبة الجبين ، تنظر الى نظرة ساخطة وقاسية ، وتقول لى مع ذلك فى صوت غائر متقطع ملهوف :

ـ شعبان نايم ٠٠٠ تعبان ونايم ٠٠ ابقا تعالى أما يصحا ٠٠٠ بالليل ٠٠٠ بالليل ٠٠٠ أنا حبقا اندهلك ٠٠٠

وتراجعت مسرعة وأوصدت الباب ٠

فانهار قلبى فى صـــدرى واختنقت · تخاذلت ركبتاى وكدت أهـــوى على الدرج · فاستندت الى الجـــدار وعينى مثبتة فى الباب · ولكنى لم أطق · لم أطق رؤية بابها ، ولا تصور شخصها، ولا تذكر الكلمات الكاذبة التى نطقت بها · فهمت كل شىء ··· فهمت فى تلك اللحظة كل شىء ··· كانت المرأة أحيانا تناديني وتلجأ الى وتحتمى بى وتظهر لى الود والعطف ، لا لتذود عن نفسها وتحرص على طهارتها وتتقى اغراء رجل متربص بها ، بل لتستمسك بهذا الرجل ، وتضـــللنى أنا وتخـدعنى ، وتلقى فى روعى انها امرأة شريفة ، وانى عندها أثير وعزيز · فتأمن بهذا التصرف شر غيرتى ، وشر ثورتى ، وشر لسانى عند أهلى والناس ، فتكســبنى ولا تفتضح ···

فهمت كل هذا ، وآمنت بكل يقينى ان الرجل خليلها · فاستعر فى غضب كغضب حيوان أخذ فى فخ · فأردت أن أحطم الباب وادخل · ولكن خيل الى اذ ذاك انى أسمع ضحكات وهمســات وزفرات ولهثـــات · فاقشعر بدنى ، وارتد غضبى الى صدرى ، وفررت ·· خرجت الى الحارة ثم الى الشارع · وما أن رأيت الحركة والحياة والناس ، حتى رأيت أيضـا نفسى ، رأيت رجولتى ، رجولتى التى اعتقدت انى قد حققتهـا وامتلكتها وبدأت أعتز بها ، تنتهك أمام عينى وتذبح ذبحا وتموت ··· شعرت انى أقل من أقل شىء · اقل من طفلة ، وأقل من شعبان ، وأقل من رضيع ، بل أقل من الحشرة الحقيرة التى تدب على الارض والتى يدوســها النـــاس بالأقدام ·

وفجأة ، وعلى قدر ذل وهـــوانى ، جاش كبرى ، واتقد حقدى ، وعـــاد لهب الغضب فاحتوانى ، ودفعنى الى الثأر فـــورا لكرامتى · فاندفعت ··· كأعمى ، وفى نيتى أن أذهب الى الطابونة وأرى الحاج طلبـــة ، وأكشف له عن الحقيقة كلهـــا ، ثم اقتاده بنفسى الى بيته ، وادخل البيت معه ، ثم اشمت واتشفى وانقع غلتى ، وأنا أبصره بعينى رأسى ينتقم لى ويوقع العقاب الصـــارم على المرأة الخائنة وعشيقها ! ···

وكان الليـــل قد ارتمى على الارض كوحش ، وأضيئت فى الحوانيت بعض المصابيح ، وأوشك أن يعود الحـــاج طلبة الى منزله فى صحبة شـعبان . فأردت أن أسرع وأتصـــل به قبل أن يفلت منه الحاج عبد السميع · فمضيت أركض فى اتجاه الطابونة وأنا الهث . ركضت وعزمت · ولكنى بعد بضـــع خطـــوات ، تمهلت وأفقت ··· أفقت وهتفت: واذا قتلها ؟! ·· اذا استضعف أمام الرجل وقتلهـــا هى ؟! ··· قد يقتلها ! · ·لا بد أن يقتلها ! ··

ومثلت أمامى المرأة الشائقة جثـــة ملوثة بالفضيحة ، مخنوقة أو مثخنـة بالجراح · فارتعدت فرائصى · تـــاه عقـــلى وتوقفت · توقفت وصرخت : أيقتلها ، وأكون أنا ··· أنا ؟! ··

وتداعى جسمى كله ، ذاب شفقـة عليها وحسرة · لم أستطع · لم يسعفنى ذلى · لم يطاوعنى قلبى · لم تستجب لى قواى · فحنيت رأسى مترنحا ، ولم أجد بدا من أن أعود الى بيتى وأنا اتخبط بين حنقى على ضعفى ، وعجزى عن الثأر حتى من غريمى ، وضرورة التســليم بهزيمتى وفشلى ···

ومشيت ... مشيت كأنى قدفقدت كل ما أملك ، وكأنى قد بت فجأة فى مهبط عمرى ، لا شباب ينتظرنى ، ولا مستقبل أمامى ، ولا حياة تدعونى ، ولا غاية أسعى اليها واعرف انها ذات قيمة وجدوى .

ولما أشرفت على ناصية حارتنا ، وهممت بدخولها ، رأيته ... نعم رأيته ... هو ... الحاج عبد السميع يخرج منها ... فتطلعت اليه كأنى لا أعرفه . فاتجه نحوى عامدا ، ولفحنى بطرف سترته الكحلية ، ثم رشقنى بلفته ظافرة ومحتقرة ، وانسل فى الشارع ، ومرق من احد الدروب .

وفى تلك اللحظة ، وبينا كنت أتبعه النظر مشفقا منهكما غير مكترث ، حانت منى التفاتة . فأبصرت عن بعد ، فى أقصى الشارع ، الحاج طلبة مقبلا على مهل فى صحبة ابنه شعبان . فلم أشأ أن أراه . لم أشأ أن أواجهه . لم أشأ أن التقى به . كنت خجلان من نفسى بعد أن خذلتنى نفسى وعدلت عن مصارحته . فانطلقت صوب الحارة ودخلت عمارتنا ....

غير انى لم أكد أدخل ، لم أكد اصعد أولى درجات السلم المعتم الذى كان يتراقص فى جوفه ضوء فانوس خافت ، حتى تراجعت مبهوتا وتسمرت ... لمحت شيئا يلمع ، شيئا يلمع ويتوهج ، شيئا أعرفه . لمحت الكوفية الحريرية الصغيرة ... الكوفية الخضراء ذات الخطوط الدقيقة الحمراء ، الكوفية التى كان يلفها الحاج عبد السميع على عنقه الغليظة ، منتشرة على الارض بشراريبها المستطيلة ، وملقاة على عتبة باب الست بهية ...

وشخصت الى الكوفية فى جنون وأدركت .. أدركت ان الحاج عبد السميع وقد هبط به الليل وخشى أن يسرقه الوقت ، وان يباغته الحاج طلبة وهو فى بيته مع امرأته ، أسرع وخرج مستعجلا وملهوفا . فلم يستخدم كوفيته الصغيرة ، ولم يتنبه الى انها لفرط نعومتها قد افلتت منه وسقطت على عتبة الباب ...

وفى مثل هبة الريح أو وقدة الحمى ، انبعثت قوتى ، وتقلص ذلى ، وتبدد ضعفى ، ورأيت فى ضرورة الانتقام رمز رجولتى . فاستبد بى الكمد والحقد ، وزايلنى كل شعور بالشفقة والصفح وعزمت . عزمت هذه المرة عزما قاطعا . عزمت أن أدع الكوفية حيث هى ، ثم انتظر مقدم الحاج طلبة ، ثم اجهر أمامه بالحقيقة ، وأشفعها بهذا البرهان الصارخ الحى ...

وقبعت فى بير السلم وانتظرت ... انتظرت وأنا ثابت . انتظرت وأنا واثق : انتظرت وانا متحفز ... وفجأة سمعت ... آه مما سمعت ... لم أسمع كلاما ، بل سمعت صوتا ... صوتا بعيدا ... وسمعت الصوت وقد أصبح قريبا ... ثم سمعته يتجه نحوى ، ويدنو منى ، ويتهدى الى كأنه يقصدنى بالذات أنا وحدى ... سمعت وقع قبقاب الست بهية ، يخفق خفقا لينا وئيدا رشيقا على أرض بيتها . وما ان طرق هذا الصوت مسمعى حتى انخلعت ... أرجفنى ، وأطربنى ،